حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد السابع . شوال ١٤٣٨هـ / تموز ٢٠١٧م

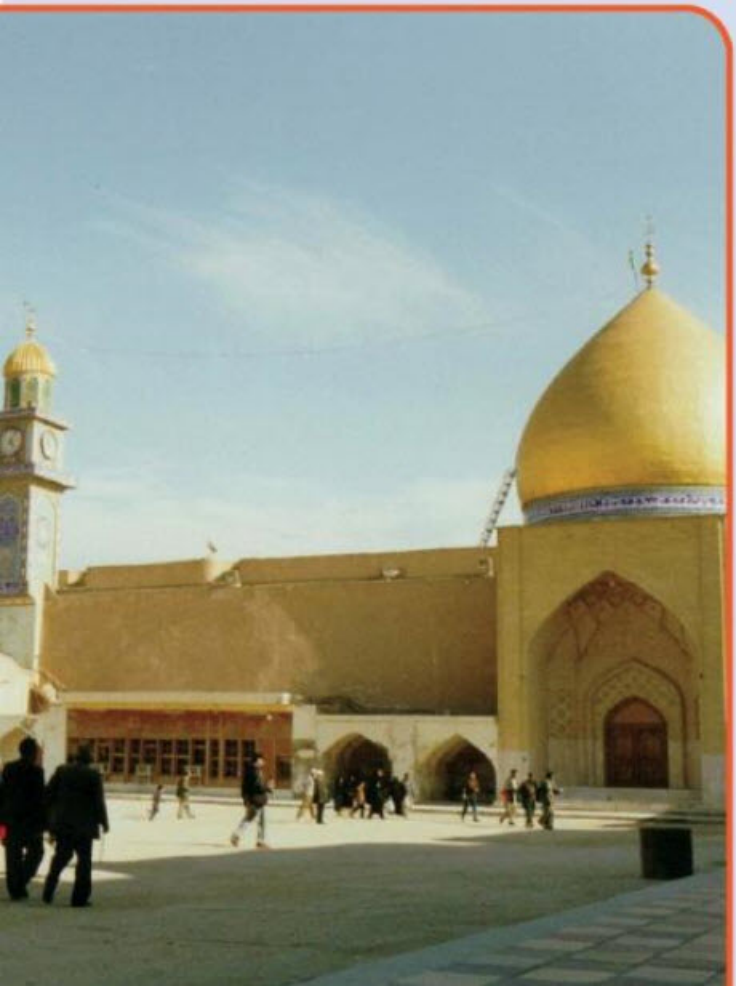

٧

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد محمد مجيد الموسوي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

التعايش الديني في الكوفة

منذ تمصيرها حتّى منتصف القرن الثّاني الهجري

وإطلالة على الواقع المعاصر

الدكتور كامل سلمان الجبوري

رئيس التحرير

عند تمصير الكوفة سنة ١٧هـ سكنت فيها عدة قبائل عربية وحددت مواطنها الّتي نزلت بها، وهناك عناصر أخرى غير العناصر العربية سكنت المصر مع العرب جنباً إلى جنب مثل العبيد والموالي، هذا من حيث القومية، أما من حيث المعتقد فقد نزلها أهل الذّمة من اليهود والنّصارى والسّريان جاؤوا إليها من الحيرة والقرى المحيطة بها ولاسيّما بعد زوال مجد الحيرة وعزها، وبالرّغم من أنّها لم تنصهر تماماً لتكون شعباً كوفياً متحد الصّفات والسّمات، حيث بقي هؤلاء على دينهم ومعتقداتهم، ولكن هذا الاندماج شكل عاملاً مهماً في الاختلاط والتّعايش وانصهار هذه العناصر في بوتقة واحدة، بوصفها نموذجاً لأهمية هذه المدينة الّتي ضمت مزيجاً من أناس تختلف لغاتهم وتتباين ألوانهم وطباعهم وثقافاتهم وأديانهم وعاداتهم، فقد كان العربي إلى جانب الفارسي والنّبطي الموالي إلى جانب العبيد وغيرهم، كما تعددت الأديان فترى المسلم بجانب المسيحي واليهودي، وترى المسلمين على اختلاف مذاهبهم بعضهم إلى جنب بعض.

فكان النّصارى الّذين سكنوا الكوفة من خارجها، أغلبهم من أهل نجران، إلا الّذين جاؤوا إليها في حالات نادرة مثل فرقد السّبخي، الّذي كان من نصارى أرمينيا وقيل عنه بأنّه من سبخة الكوفة وعده الذّهبي[١] من المحدثين والزّهاد الّذين أسلموا، ومجيئه من أرمينيا لا يعتريه شك باعتبار أنّ الحدود كانت مفتوحة وأنّ الجيش العربي قد فتح أرمينيا ووقع مع الأرمن -معاهدة شريفة- وتوطدت علاقة العرب بهم منذ القرون الأولى للهجرة[٢].

أما نصارى نجران فقد قصدوا الكوفة سنة ٢٠هـ وأقاموا فيها بموضع عرف باسمهم نجران، ويقع على نهر أبان وهو نفس نهر أبا الّذي ذكره ياقوت[٣] ويقع بين الكوفة وقصر ابن هبيرة وينسب إلى أبا بن الصّمغان أحد ملوك النّبط

ولهؤلاء النّصارى محلة بالكوفة عرفت باسم النّجرانية وتقع بين جامع الكوفة ودار بني أود[٤]، ويبدو أنّ موقع محلتهم كان على جانب من الأهمية إذ إنّنا نعلم أنّ الخليفة أبا العبّاس أوّل خلفاء العبّاسيين قد أقام فيه ردحاً من الزّمن وأنّ النّصارى احتفوا بمقدمه إلى الكوفة احتفاءً كبيراً فأوصى السّفاح القاضي الحجاج بن أرطأة النّخعي بهم خيراً ونقّص جزيتهم[٥].

وامتهنوا مهنة الصّيرفة حتّى غلبت عليهم فاشتهروا بها وكانت حوانيت الصّيارفة تقع قبال مسجد بني جذيمة بالكوفة[٦].

وهذا دليل على أنّهم كانوا من العناصر المؤثرة في النّشاط الاقتصادي الكوفي إذ إنّ عملية الصّيرفة هذه قامت بدور مهم في حياة الكوفة من جميع نواحيها فقد اشتغل هؤلاء الصّيارفة

(١) الذّهبي، شمس الدّين، محمّد بن أحمد بن عثمان «ت ٧٤٨هـ»: ميزان الاعتدال.

(٢) انظر: إميل، بول: تأريخ أرمينيا ص٢٢٠٢٣.

(٣) الحموي، ياقوت: معجم البلدان ٢٦٩/٥، ٣١٥ «مادتي: نجران، نهر أبا» ط. دار صادر- دار بيروت ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.

(٤) البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان ٧٨/١، تحقيق: صلاح الدّين المنجد، ط. القاهرة، الحموي، ياقوت: ن. م ٤١٨/٢.

(٥) النّويري، أحمد بن عبد الوهاب «ت ٧٤٢هـ»: نهاية الإرب في فنون الأدب ١٣٧/١٨، ط. دار الكتب المصرية ١٩٢٥ اليعقوبي، أحمد «ت ٢٨٤هـ» ٤١٧/٢، ط. النّجف ١٣٥٨هـ الطّبري، أبو جعفر، محمّد بن جرير «ت ٣١٠هـ»: تاريخ الرّسل والملوك، مط الحسينية- القاهرة، مط الاستقامة- القاهرة ١٩٣٩م، المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذّهب ٨٧/٦، ٩٨.

(٦) الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب «ت ٢٥٥هـ»: ثلاث رسائل ص١٧، البلاذري، فتوح البلدان ص٢٨٣.

بالتّسليف والقروض وكانوا يتواسطون بين النّاس ودار الضّرب كما كانوا عنصراً فاعلاً في تيسير الأمور التّجارية[١].

وقد اشتغل مسيحيو الكوفة بالصّيرفة وكونوا سوقاً لها وصار في أيديهم أكبر محلات الصّيرفة في المدينة[٢]، حيث كان صيارفة اللخميين قديماً أساقفة الحيرة[٣].

كان هؤلاء الصّيارفة واسطة التّبادل الوحيدة بين مسكوكات الفرس الفضية ومسكوكات الرّومان الذّهبية[٤]، كما اشتغلوا بعقد القروض لتسهيل التّجارة فكانت تجارة التّبادل والصّيرفة في أيديهم[٥]، وقد أتقن هؤلاء المسيحيون عمل الصّيرفة ونظموه بشكل يشابه بنوك اليوم.

وعندما هاجر سكان الحيرة إلى الكوفة كان من بينهم عدد ضخم من التّجار لعبوا دوراً كبيراً في تنشيط تجارة المدينة لما لهم من خبرة واسعة وتجربة طويلة في هذا الميدان، حيث كانوا يجوبون مناطق كثيرة من العالم طلباً للكسب والرّبح، وقد أثنى الهمداني على همة الحيريين في التّجارة وحبهم للمغامرة والكسب فقال: «وأبعد النّاس نجعة في الكسب بصري وحيري ومن دخل فرغانة القصوى والسّوس الأقصى فلا بد أن يرى فيها بصرياً أو حيرياً»[٦].

ومن المهن الّتي اشتهر في مزاولتها النّصارى مهنة الطّب، فقد كان أساقفة الحيرة يعالجون المرضى[٧] فكانت أديرتهم مستشفيات يلجأ إليها المرضى طلباً للشفاء والعلاج، فكان دير الكلب مشهور بعلاج إصابة عقر الكلب[٨].

وعند اغتيال الإمام علي (عليه السلام) تصدى أثير بن عمرو بن هاني السّكوني الطّبيب النّصراني، ومن أحذق أطباء الجراحة في عصره لمعالجة الإمام.

وقد أوردت كتب التّأريخ والسّير أخباراً متفرقة عن نصارى نجران من أهل الكوفة وفيها: إنّ يزيد بن عبد المدان قد أقام مع النّصارى العاملين في صناعة النّسيج القادمين من نجران، لما أبعدهم عمر إلى هناك، وظل أخوه الأصغر عبد الله في بلاد العرب زعيماً لبني مذحج الّذين حلّوا محل آل زبيد الّذين رحلوا إلى الكوفة[٩].

ومفاد ذلك أنّ هؤلاء النّصارى اشتغلوا أيضاً في صناعة النّسيج إضافة للصيرفة وإليهم تنسب الحلل النّجرانية الّتي اشتهرت بها الكوفة.

وفي ظل هذا التّسامح تولوا الوظائف الكثيرة في الدّولة ولاسيّما كتابة الدّواوين في الكوفة حيث كانت لغة الكتابة فيها بغير العربية[١٠].

كما اتخذ أبو موسى الأشعري له كاتباً نصرانياً[١١] فضلاً عن أنّ رجلاً مسيحياً تولى إدارة سجن قريب من الكوفة سنة ١٢٦هـ/٧٤٣م عندما كان الوليد بن عقبة أميراً عليها[١٢].

كما أنّ بعض المسيحين نالوا حظوة عند بعض ولاة الكوفة يحسدهم عليها المسلمون فكان أبو زبيد النّصراني صديقاً حميماً للوليد بن عقبة[١٣] والي الكوفة وجليسه في مجالس الشّراب والأنس.

وقيل أنّ الوليد بن عقبة أمير الكوفة كان يُدخل النّصارى المساجد ويجري عليهم الخمر والخنازير كلّ شهر، وضمن لهم أرزاقهم شهرياً[١٤].

وقد عامل الخلفاء والولاة أهل الذّمة معاملة حسنة، فقد أمر عمر بن الخطاب أن يحسنوا معاملتهم وأن لا يكلفوهم فوق طاقاتهم، وكان كثيراً ما يسأل ولاته عن أحوالهم فيقولون له «ما نعلم إلا وفاء حسن ملكه»[١٥].

كما أحسن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) معاملتهم حين

(١) الطّريحي، محمّد سعيد: الدّيارات والأمكنة النّصرانية في الكوفة، ص٣٧، ط١ بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٢) البراقي: السّيد حسين بن أحمد «ت ١٣٣٢هـ»: تأريخ الكوفة، تحقيق: السّيد محمّد صادق بحر العلوم، ط. النّجف ١٩٦٠م.

(٣) ماسنيون: المسيو لويس «ت ١٩٦٢م»: خطط الكوفة وشرح خريطتها، ترجمة: تقي المصعبي، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، ص٦٠، ط٢ بيروت.

(٤) ماسنيون، المسيو لويس، ن. م. ص٥٩.

(٥) ماسنيون، المسيو لويس، ن. م. ص٥٩.

(٦) الهمداني، ابن الفقيه «ت القرن الخامس هـ»: مختصر البلدان ص١٥، ١٩١، ط. ليدن ١٣٠٣.

(٧) الأصفهاني، أبو الفرج، علي بن الحسين «ت ٢٥٦هـ»، الأغاني ٤٠/١١، ط. محمّد السّاسي- القاهرة ١٣٢٢هـ

(٨) العمري، ابن فضل الله «ت ٧٤٩هـ»، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ٢٥٤/١، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، ط. بيروت.

(٩) المباهلة بين النّبي ونصارى نجران ١٧٢، ط. ميلانو ١٩٤٤، بدوي، عبد الرّحمن «مترجم»: شخصيات قلقة في الإسلام، ط. القاهرة، انظر: الأصفهاني، أبو الفرج.

(١٠) البلاذري، أحمد بن يحيى «ت ٢٧٩هـ»: فتوح البلدان ص١٤٧، ط. مصر ١٩٥٩م.

(١١) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم «ت ٢٧٦هـ»: عيون الأخبار ٤٣/١، ط. دار الكتب ١٩٢٥- ١٩٣٠م، تربتون: أهل الذّمة في الإسلام، ترجمة حسن الحبشي ص١٩، ط. مصر ١٩٤٩.

(١٢) الأصفهاني: أبو الفرج، ن. م ١٨٤/٤.

(١٣) الطّبري، أبو جعفر، محمّد بن جرير: ن. م ٣٢٧، ابن خلدون، عبد الرّحمن بن محمّد «ت ٨٠٨هـ»: التّاريخ ٣٧٨/٢ لعلم العبر.

(١٤) البلاذري، أحمد بن يحيى: أنساب الأشراف ٣١/٥، ط. فلسطين «أورشليم» ١٩٣٦م.

(١٥) الطّبري: ن. م ٢١٨/٤.

ساوى في العطاء بين النّصارى وبين العرب والموالي[1] وكان لعمر بن عبد العزيز مواقف طيبة إزاء أهل الذّمة كتب إلى عامله بالكوفة قائلاً: «انظر من كان من أهل الذّمة فأظهر الإسلام فأسقط الجزية عنه»[2].

كما أسقط عمر بن عبد العزيز الجزية عن أهل الذّمة، فمن كبرت سنه وضعفت قوته وولت مكاسبه أجري عليه قوته من بيت المسلمين[3].

كما تسامح المسلمون مع أهل الذّمة في شرائهم الجواري المسلمات وتسريهن[4].

ولما كان الإسلام قد حفظ حرياتهم وأموالهم ودمائهم وشعائرهم فقد حازوا في هذه المدينة على اشتداد قوة ومنعة، حتّى أنّهم كانوا يتقلدون الصّلبان دونما تقييد، وورد أنّ الشّاعر الأخطل النّصراني كان يتقلد صليباً من الذّهب وهو ينشد شعره في جامع الكوفة[5].

وبرز من نصارى الكوفة: هانيء بن قبيصة بن هانيء بن مسعود، قال ابن دريد: «كان شريفاً عظيم القدر، وكان نصرانياً، وأدرك الإسلام فلم يسلم ومات بالكوفة»[6]، وكان شاعراً.

ومما يذكر أنّ نائله بنت الفرافصة امرأة عثمان بن عفان هي من الكوفة، وقومها من النّصارى بالكوفة[7].

وكان بعض نصارى الكوفة ينتمي للحركات السّياسية المعارضة، فلما ثار عبد الرّحمن بن محمّد بن الأشعث على الحجاج انضم إليه العرب من سكان العراق وجماعات من الخوارج والفرس والنّصارى أيضاً، وقد اعتبرهم الحجاج مسؤولين عن هذه الثّورة- ولعل ذلك كان سبباً في معاملته السّيئة معهم.

وممن اشتغل في السّياسة النّصراني الكوفي خداش الّذي أسلم واشتغل بتدريس القرآن، ثمّ انضم إلى الدّعوة العبّاسية فبعثه داعي الدّعاة بالكوفة إلى خراسان، حيث أخذ يبث الدّعوة لمحمّد بن علي، ولم يلبث أن انصرف عن العبّاسيين وأخذ يذيع عن الإمام العبّاسي بعض العقائد الباطلة مما أدى إلى قيام نفور بين الإمام العبّاسي وشيعته في خراسان، وكان خداش سنة ١١٨هـ فأمر أسد بن عبد الله القسري بقطع أطرافه ثمّ قتله.. وقيل إنّ خداشاً كان يعمل على تحويل الدّعوة إلى البيت العلوي[8].

ومن الشّواهد على ما بلغه النّصارى من مكانة في القرون الأولى للهجرة أنّ خالد بن عبد الله القسري والي الكوفة «بعد سنة ١٠٥هـ/٧٢٣م» أمر ببناء كنيسة نصرانية، ومن الغريب أنّه اتخذ لها موقفاً حساساً وجعلها في ظهر قبلة مسجد الكوفة، حتّى أنّ النّصارى كانوا يدقون النّاقوس[9] حين يؤذن للصلاة وكانت ترانيمهم الدّينية تعلو على صوت الإمام فلا يسمع[10].

وكان أحد جثالقة[11] الكوفة، الجاثليق مار فايثون المتوفى ٧٤١م قد حظي بمنزلة كبرى عند خالد بن عبد الله القسري، وكان إذا دخل عليه بالكوفة يجلسه على كرسي ويخلع عليه ويسأله الدّعاء، ووافقه على شيء يسير يؤديه من الخراج بالمدائن وكتب له كتاباً وتقدم إلى «طارق» خليفته بصيانته[12].

وكان الجاثليق مار آبا الثّاني المتوفى ٧٥٢م يلقى حفاوة كبيرة من عامل الكوفة يوسف بن عمر[13]، رغم تضييق الأخير على النّصارى.

واشتهر من أساقفة الكوفة، الأسقف جرجس المتوفى ٧٢٥م، وكان أسقفاً لبني طي وعقيل وتنوخ وعرف بأسقف العرب أو أسقف عرب الجزيرة المؤمنين وكانت عاقولا- الكوفة كرسي أبرشيته وهو من علماء عصره المتضلعين في الفلسفة فوضع شروحاً في بعض الأسفار المقدسة وأسرار الكتبة ونظم القصائد وترجم كتاب الأورغانون لأرسطو[14].

(١) اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن واضح: تاريخ اليعقوبي ١٥٩/٢، ط. النّجف ١٣٥٨هـ

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف.

(٤) الأصفهاني، أبو الفرج: ن. م ٥٩/١٩.

(٥) الأصفهاني، أبو الفرج ن. م ٣١٩/٨.

(٦) الأزدي، ابن دريد: الاشتقاق ط٢١٦/١، ط٣٥٩/٢، الطّبري: ن. م ١٥٢/٢.

(٧) الحموي، ياقوت: ن. م. ص٤٣٠ «ط.الهيئة المصرية»، كحالة، عمر رضا: أعلام النّساء ١٤٧/٥، ط. دمشق ١٣٥٩هـ

(٨) النّويري، أحمد بن عبد الوهاب: ن. م ٢٧٨/١، المسعودي: علي بن الحسين «ت ٣٤٦هـ»: مروج الذّهب ومعادن الجوهر، ٢٢٥/٣، ط. القاهرة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

(٩) البلاذري: فتوح البلدان ٢٨٤، المبرد أبو العبّاس، محمّد بن يزيد «ت ٢٨٦هـ»: الكامل في اللغة والأدب ٨١٢/٣، ط. مصر ١٣٢٣هـ الأصفهاني، أبو الفرج: ن. م ٥٩/١٩، تربتون: أهل الذّمة ١١١.

(١٠) الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني ١٤/٢٢ «ط. الهيئة المصرية»، ابن خلكان، شمس الدّين، أبو العبّاس «ت ٦٨١هـ»: وفيات الأعيان ٣٥٤/١، ط١ القاهرة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.

(١١) جمع جاثليق: كلمة يونانية تعني العام أو الأب العام واستعملت للرئيس الأعلى عند النّساطرة ومعناها أيضاً: أبو العائلة، أو القبيلة وتستعمل مجازاً لرئيس جماعة أو طائفة وتقابلها اليوم كلمة البطرك أو البطريرك.

(١٢) ماري: أخبار فطاركة ٦٦.

(١٣) ماري: ن. م ص٦٦.

(١٤) برصوم، مار اغناطيوس أفرام الأوّل: اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السّريانية ٣٠٩- ٣١٣، ط. حمص ١٩٤٣م، اليسوعي، لويس شيخو: النّصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ١٠١/١، ٣٢٨/٢.

ويقدم لنا فريق من المؤرخين مشهداً يصور إقامة المراسيم الدّينية النّصرانية في الكوفة بحرية بالغة فقد ورد أنّ عبد الرّحمن بن ملجم المرادي -قتل سنة ٤٠هـ- خرج ذات يوم إلى السّوق في الكوفة متقلداً سيفه فمرت به جنازة يشيعها أشراف العرب معها القسيسون يتلون الأناجيل فقال: ويحكم ما هذا؟ فقالوا: هذا أبجر بن جابر البجلي مات نصرانياً، وابنه حجار بن أبجر سيد بكر من وائل فاتبعها أشراف النّاس لسؤدد ابنه واتبعها النّصارى لدينه.

وكانت مقبرة النّصارى بالكوفة مشهورة باسم «ناووس الكوفة» منذ القرن الأوّل الهجري[١].

كما عاش إلى جانب المسيحيين يهود جاؤوا إليها بعد تأسيسها من اليمن، فقد جاء قسم كبير من يهود الحجاز بعد أن أجلى عمر بن الخطاب جميع من قدر على إجلائه منهم وقدم الكوفة أيضاً عدد آخر من يهود الحيرة، وكان المسلمون ينظرون إليهم نظرة احتقار وازدراء، لشغبهم وخبثهم، ولكنهم استطاعوا أن يقيموا شعائرهم الدّينية بحرية تامة في ظل الإسلام وبنوا المعابد في الكوفة، وقد ذكر «بنيامين» بأنّه شاهد كنيساً لليهود في الكوفة عند زيارته لها[٢] كما أنّهم زاولوا بعض الحرف الّتي كان العربي يأنف من مزاولتها فكان منهم الصّفارون والصّباغون وغيرهم.

وبمرور الزّمن استطاعوا أن يثبتوا أقدامهم في المجتمع الكوفي وأن يبسطوا سلطانهم على جميع المهن فزاولوا مهنة التّجارة والصّرافة والصّياغة ونسج الحرير وإدارة السّفن وصناعة الزّجاج[٣].

وكان للحجاج بن يوسف طبيبان يهوديان يشرفان على شؤونه الصّحية[٤].

ولم تقتصر سيطرة أهل الذّمة في الكوفة على مهنة التّجارة والصّيرفة، وإنما امتدت إلى وظائف الدّولة فأصبحوا خطراً يهدد المجتمع الكوفي بصورة خاصة والمجتمع الإسلامي بصورة عامة، وقد تنبه إلى هذا الخطر الجسيم بعض الولاة فغيروا من سياستهم إزاء أهل الذّمة فعاملوهم بقسوة[٥].

أمّا السّريان فقد كانوا يسكنون الجزيرة الفراتية في الرّها ونصيبين وجنديسابور وحران في ديارات منتشرة فيها، كما سكنوا أيضاً الحيرة والأديرة الموجودة في أطراف الحيرة والنّجف ثمّ قدموا الكوفة واستقروا بها واشتغلوا بالعلم، فقد قام السّريان بنشر الفلسفة اليونانية بالعراق وما حولها، وخاصة مذهب الأفلاطونية وأخذوا ينقلون الكتب اليونانية إلى لغتهم السّريانية، وكانت المناطق الّتي سكنوها ولاسيّما حران مركزاً من مراكز الثّقافة اليونانية والرّياضيات والفلك والفلسفة[٦].

وقد خدم السّريانيون العلم والفلسفة بما ترجموا من مؤلفاتهم في الطّب والرّياضيات والطّبيعيات والمنطق وغيرها[٧].

كما سكن الكوفة من أهل الذّمة أيضاً «النّبط» وهم خليط من الكلدانيين والسّريانيين والآراميين، وقد أطلق عليهم اسم «الأنباط» وكانت الأكثرية السّاحقة منهم قد اعتنقت المسيحية منذ قرون خلت[٨].

وأشار المقدسي إلى أنّ استعمال كلمة «نبط» تدل على الفلاحين الّذين يتكلمون اللغة الآرامية في العراق، خصوصاً في منطقة البطيحة[٩].

وقيل إنّ العرب كانوا يطلقون لفظة «النّبط» على سكان العراق الّذين لم يكونوا رعاة ولا جنوداً[١٠]، وقد أطلق المسعودي[١١] على فلاحي العراق «النّبط» و«السّريان».

ويبدو أنّه كان للنبط صفات خلقية خاصة تختلف عن الصّفات الخلقية الّتي يتحلى بها العرب وقد استطاعوا أن يؤثروا في المجتمع الكوفي تأثيراً واضحاً فقد ذكر الجاحظ أنّ أبا عمرو بن العلاء كان يقول لأهل الكوفة: «لكم حذلقة النّبط وصلفهم، ولنا دهاء الفرس وأحلامهم»[١٢].

ولقد قامت الطّبقة المتوسطة من الآراميين بدور مهم في الحركة الثّقافية في العراق وظهر من بينها عدد كبير من الأطباء المشهورين والفلكيين والعلماء والمترجمين، وقد كانت حران مركزاً للثقافة الآرامية وانتشر كثيرون منهم في المنطقة الواقعة بين الكوفة والبطائح وواسط

(١) الأصفهاني، أبو الفرج: ن. م ١٦١/٧ «ط. مصر ١٢٨٥هـ».
(٢) بنيامين التّطيلي: رحلة بنيامين ص١٤٠، تربتون: أهل الذّمة ص٥٩.
(٣) تربتون: ن. م ص٢٠٥.
(٤) ابن العبري، غرغوريوس الملطي «ت ٦٨٩هـ»: تاريخ مختصر الدّول ص١٩٤، ط. بيروت ١٨٩٠م.
(٥) ترتبون، ن. م ص١٣٨.
(٦) أحمد أمين: ضحى الإسلام ٢٧٠/١، ط. القاهرة ١٩٢٨م.
(٧) أحمد أمين: ن. م ٢٧١/١- ٢٧٢.
(٨) مجلة المجمع العلمي العراقي: خالد بن الوليد في العراق بقلم طه الهاشمي مج٣ ع٨٣/١ لسنة ١٩٥٤م.
(٩) المقدسي، محمّد بن أحمد «ت في القرن الخامس الهجري»: أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم ص١٠٨، ط. ليدن ١٨٧٧م.
(١٠) الحموي، ياقوت معجم البلدان ٦٣٤/٣.
(١١) المسعودي، علي بن الحسين «ت ٣٤٦هـ»: التّنبيه والإشراف ص٧، ٣٧، ط. القاهرة ١٩٣٨م.
(١٢) الجاحظ، عمر بن بحر «ت ٢٥٥هـ»: البيان والتّبيين ١٠٦/٢، ط. القاهرة ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.

ولذلك لم تتأثر الحضارة العربية في الكوفة بالحضارة الفارسية فقط بل تأثرت بالحضارة الرّومانية الإغريقية بواسطة هؤلاء السّريان من النّساطرة المنتشرين في العراق ولاسيّما «الحيرة»[1].

وقد كان هؤلاء النّساطرة الصّلة الّتي كانت تربط بين اليونان والعرب، وكان ذلك واضحاً بما خلفتها من المدارس النّسطورية لهم من ثقافة وعلم.

أمّا التّعايش الدّيني بين المسلمين أنفسهم فإنّ دولة الرّسول الكريم (ﷺ) جامعة لكافة الأجناس، لذا يشعر النّاس بدفء عدالة الإسلام، وأنّهم يستظلون بروح الأخوة الإسلامية، فكانت مشاعرهم متجاوبة، وأحاسيسهم متوافقة مع هذا الدّين الحنيف، فحققوا بذلك قول الرّسول (ﷺ): «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد..»، فكان المسلم في الشّرق يألم لما يصيب أخاه المسلم في الغرب، كما كان أخوه يبادله الشّعور نفسه، وكان هذا الشّعور يحقق تضامناً إيجابياً بين المسلمين، فكنت ترى حشوداً من المجاهدين تندفع للتطوع في جيش الإسلام، لرد كيد الأعداء وحماية دعوة الخير، وصيانة العقيدة من المتحاملين عليها.

كما أنّ الدّعوة الإسلامية، هي دعوة عالمية عقدية، وعالمية وحضارية، ويصعب الفصل بينهما، إذ الفصل بينهما هو مسار الصّراع بين النّاس اليوم، هذه الدّعوة الإنسانية العالمية، هي الّتي أشار إليها الكاتب والباحث مرسيل بوازر، في كتابه «إنسانية الإسلام» فيقول في كتابه: «إنّ الإسلام، بوصفه ديناً ومنهجاً اجتماعياً في وقت واحد، لا بد أن يفصح بشأن العالمية عن خصائص شتى تبعاً لأربع وجهات نظر محتملة: الوجهة الماورائية، والوجهة الدّينية، والوجهة الاجتماعية، والوجهة السّياسية.. ولا يمكن بالطّبع أن ينتج عن هذه الرّؤى الأربع مفاهيم متباينة تبايناً أساسياً، لأنّها صادرة عن مصدر واحد، غير أنّ التّعبير عن الفكرة يمكن أن يتنوع بوصفه رد فعل منطقياً على وضع من نوع خاص»[2].

غير أنّ خصوم الإسلام لم يقتنعوا بما وصلوا إليه من نتائج، بل استمروا في تآمرهم، وواصلوا العمل في إعداد المؤامرات وحبك الدّسائس وافتعال الأزمات لمزيد من التّمزق والتّشظي بين المسلمين، وبمرور الزّمن دبّ الوهن والفتور إلى النّفوس، فضعفت الرّوابط الّتي تجمع الأمة الإسلامية على الخير، وغلبت الطّائفية على كثيرين، وتحكم التّعصب لهذا المذهب أو ذاك، فشجع ذلك الأعداء والخصوم على الإمعان في حبك خيوط التّآمر وتوسيع الشّقة، فنسبت الأقوال لهذا الطّرف أو ذاك، كما تم تأليف الكتب والمقالات، ونظم القصائد أو إسنادها إلى غير قائلها إذكاء لنار الفتنة وزيادة في تعزيز عوامل الفرقة والشّتات، وأسهمت وسائل الإعلام الحديثة كالانترنيت والفضائيات وصفحات التّواصل الاجتماعي في إشعال الأجواء أكثر من قبل، فضلاً عن فتاوى التّكفير والذّبح!

فرغم اندحار الصّليبيين، فإنّ النّتائج المترتبة على هذه المعارك لم تكن في مستوى الانتصار الّذي حققه المسلمون، بينما شكلت نقطة تحول في الحياة الدّينية والعقلية لدى الغربيين، فإنها بالنّسبة للمسلمين عكس ما كان مأمولاً، إذ اتجه المسلمون إلى التّواكل، وإهمال الوسائل الكفيلة بنهوضهم واستعادة الوحدة الّتي أصيبت في الصّميم.

ولذلك، فلا نستغرب أن يظهر ذلك في التّصريحات الّتي يدلي بها قادة بعض البلدان الغربية في مراحل مختلفة، فهم اعتبروا احتلال البلدان الإسلامية استمراراً للحروب الصّليبية! وهو ما صرح به الجنرال البريطاني «اللنبي» الّذي هتف بعد انتزاع فلسطين من الدّولة العثمانية ومن المسلمين نهائياً: «اليوم انتهت الحروب الصّليبية».

ولا يزال هذا النّهج هو الّذي يسير عليه الغرب، فكلما ظهرت بارقة أمل في توحيد الصّف الإسلامي واستعادة المسلمين لشعورهم الأصيل في الوحدة والمصير والعيش المشترك، تحركت العناصر الّتي تعمل في الظّلام، لمواجهة احتمال اليقظة والنّهضة، وأبرز شاهد على ذلك، قمع ثورة شعبية منتصرة تعيش أجواء الحراك والرّبيع العربي، كما هو حاصل في البحرين والمنطقة الشّرقية من العربية السّعودية بعد إلصاق تهمة «الطّائفية» عليها، أو محاولة إسقاط نظام مقاوم لإسرائيل تحت ذريعة «الدّيمقراطية» في الوقت الّذي تعيش بلدان أخرى مجاورة لهذا البلد التّخلف السّياسي والبداوة في نظام الحكم.

وفي الآونة الأخيرة حيث برز الشّعور الإسلامي متأججاً في النّفوس كانت النّتيجة ما نشاهده اليوم من إحياء النّعرات الطّائفية الّتي عفا عليها الزّمان، وإذكاء نار الحرب الطّائفية، كما نراهم يعيدون شعارات يعلمون جميعاً إنّها من وضع المتآمرين على الإنسانية بشكل عام وعلى المسلمين بشكل خاص منذ القدم.

وهكذا نرى الأقلام من هذا الجانب وذلك، قد صقلت لرمي الأطراف بعضها ببعض بالكفر والإلحاد والمروق عن الدّين، كما نشطت حركة التّأليف الطّائفي، ووقع البحث عن الأقوال

(١) شوقي ضيف: التّطور والتّجديد في الشّعر الأموي ص٤١، ط. القاهرة ١٩٥٩م.

(٢) إنسانية الإسلام، التّرجمة العربية ص٧٢، ط١ ١٩٨٠م.

الشّاذة في هذا المذهب أو ذاك لنشرها وإذاعتها بين النّاس، وإذا كان من يفعل ذلك عن حسن نية واعتباره قربة يتقرب بها إلى الله، فإنّ النّتيجة لن تكون في صالح وحدة المسلمين على أي حال، بينما لا أحد يبحث اليوم عن إجماعيات المروي عن الرّسول (ﷺ) الّتي تسمو فوق الطّائفيات، مثل قوله (ﷺ): «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم».

ولم تقتصر المعارك الطّائفية بين المسلمين، بل امتدت بنفس الثّقافة المتطرفة تزعزع التّعايش المشترك بين المسلم وأهل الكتاب، متناسية قوله تعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْه مِنْ رَبِّه وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِالله وَمَلائِكَتِه وَكُتُبِه وَرُسُلِه لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَد مِنْ رُسُلِه وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿**وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤٦].

بل من أوجه التّعايش الاجتماعي، جواز زواج المسلمين من نساء أهل الكتاب، وجواز طعامهم وجواز طعام المسلمين لهم، كما قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَطَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ**﴾ [المائدة: ٥].